

الحج عملي

معنى التوحيد



الرئاسة العامة لشؤون المسجد الحرام والمسجد النبوي

إنتاج



إدارة المطبوعات والنشر

إعداد



مكتبة الحرم المكي الشريف




بسم الله الرحمن الرحيم

الفهرس



البداية!

هذه أول مرّة أؤدّي فيها فريضة الحج..

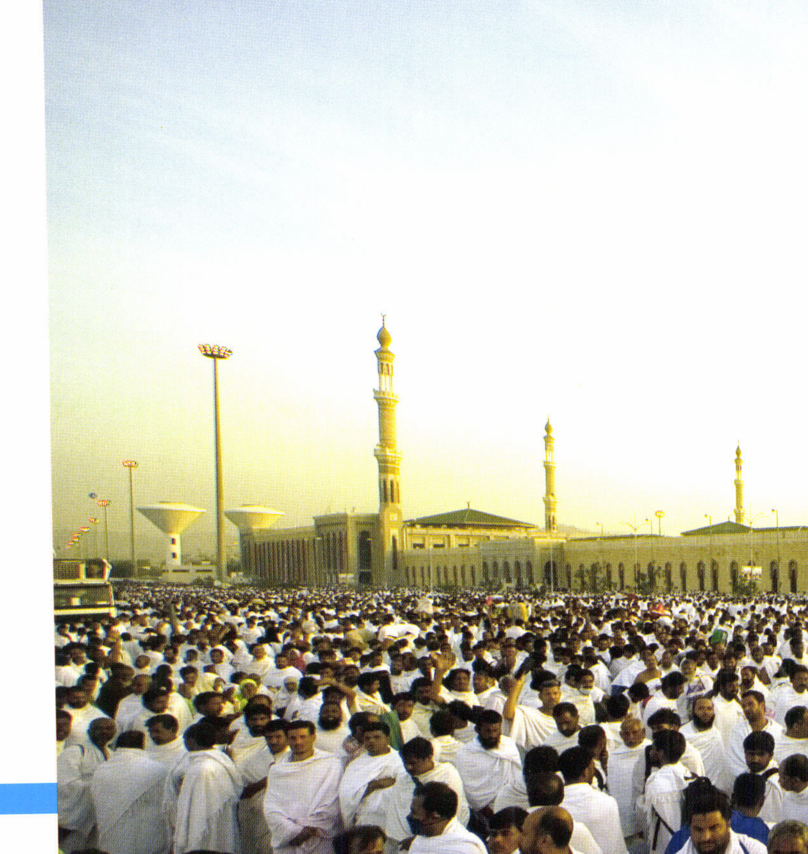
وهي المرّة الأولى التي أزور فيها بلد الله الحرام..

لم يكن حالي يختلف كثيراً عن حال بعض المسلمين الذين توارثوا منذ طفولتهم طقوساً عن آبائهم وأجدادهم تخالف حقيقة الإسلام!!

لا زلت أذكر المظاهر التي كانت منتشرة في مدينتنا، وفي الضواحي والقرى المحيطة بها، وكنا نعبّر فيها عن فرحتنا وإشباع عاطفة التديّن في نفوسنا، وبخاصّة في المناسبات الدينية.. يجتمع الرجال والنساء في مكان محدد، وكثيراً ما يكون بقرب أحد قبور (الأولياء) المعروفين، ثمّ يحضر (الشيخ) ويقوم بتقديم رقصات واستعراضات غريبة أقرب ما تكون للسحر.. يبدأ الجميع بعدها من حوله بالرقص، وترديد الموشّحات والقصائد الدينية، كقصائد المديح النبوي وغيرها، ثمّ تُذبح القرابين لذلك الولي، ويبدأ الناس بدعوته وتقديم الأموال والهدايا أمام القبر، وسؤاله أن يفرّج عنهم.. هذه تطلبه الولد، وذاك يسأله الشفاء، والآخر يتقرب إليه قبل السفر.. وهكذا، حتى يتمّ إعداد وجبة العشاء من تلك الذبائح ويبدأ الجميع بتناول الطعام، ثمّ يودع بعضهم بعضاً وينصرفون!!



مظاهر معتادة كنت أشاهدها وأقوم بها بين الحين والآخر، ولا يزال البعض يتعصّب لها.. أدركت أثناء إقامتي بمكة أنّها ممارسات شركية كفيلة بأن تخرجني عن دائرة الإسلام!! لقد جئتُ لأداء فريضة الحج.. ولكنّ هذه العبادة العظيمة كانت أيضاً بداية لحياة جديدة مع التوحيد، والحمد لله.. ولم يخلُ هذا الانتقال إلى أنوار الهداية من قصة وسبب.





درس التوحيد

الحمد لله.. ها قد انتهيت من العمرة وهذا هو الشوط الأخير من السعي. أنا بحاجة لانتظار أم عبدالله وبقية الأولاد حتى نعود معاً إلى الفندق، لقد بدأوا للتّو في الشوط الثاني.

سوف أشرب من ماء زمزم وأجلس بقرب الاسطوانة هناك أقرأ آيات من القرآن الكريم ريثما يحضرون.

هكذا بدأت معي قصّة الهداية بكل بساطة..

تناولت مصحفاً من بين المصاحف المصفوفة بانتظام على تلك الاسطوانة.. ثم أسندت ظهري إلى الجدار المواجه للمسعى، وأخذت أقلّب الصفحات.

ظننته مُصحفاً أول الأمر، لكنه كان كتاباً مختصراً في التفسير بعنوان (التفسير الميسّر).

: حسناً يمكنني أن أقرأ كلام الله تعالى، وأتوجه إلى معاني الآيات في آن واحد..

ما أجمل مقدّمات الهداية فما إن فتحت التفسير بغير قصد سورة بعينها حتى وقت عيناي على آيات من سورة الحج مباشرة..

: هذا ما كنت أبحث عنه بالتحديد..

بدأت أقرأ في كلام الله تعالى: {وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَاهِيمَ مَكَانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئًا وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقَائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (٢٦) وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (٢٧) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ (٢٨) ثُمَّ لْيَقْضُوا تَفَثَهُمْ وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ وَلْيَطَّوَّفُوا بِالْبَيْتِ الْعَتِيقِ (٢٩) ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُمَاتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَأُحِلَّتْ لَكُمُ الْأَنْعَامُ إِلَّا مَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاجْتَنِبُوا الرِّجْسَ مِنَ الْأَوْثَانِ وَاجْتَنِبُوا قَوْلَ الزُّورِ (٣٠) حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ (٣١) ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ (٣٢) لَكُمْ فِيهَا مَنَافِعُ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى ثُمَّ مَحِلُّهَا إِلَى الْبَيْتِ الْعَتِيقِ}.

ومن بين أكثر الآيات التي استوقفتني وأخذتُ أكررها وأتأمّل في معانيها.. هذه الآية العظيمة: {حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}.

: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. لقد انتهينا من العمرة ولله الحمد.. هل سترافقنا إلى الفندق؟

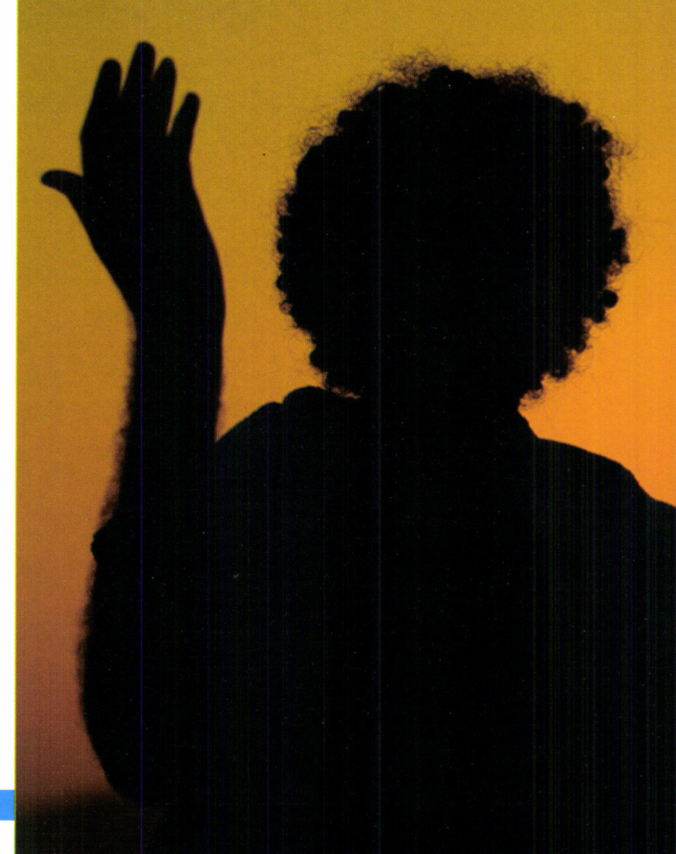
: اسبقوني، وسوف آتيكم في وقت لاحق.

: أراك مشغول البال.. خيراً أيها الزوج العزيز؟!

: لن يستغرق الأمر كثيراً، لقد وقفت على آيات عظيمة تتحدث عن الحج، سوف أبحث عن تفسيرها وألحق بكم بإذن الله تعالى.

:لا تنس إحضار الغداء معك، فنحن نتضور جوعاً في أعقاب أداء العمرة.

: بإذن الله.





الخسران العظيم !

مضى وقت ليس بالقليل ولم أجد بغيتي.. لو سألت ذلك العامل هناك.

: السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

: أبحث عن كتب للتفسير.

: لماذا لا تتوجه إلى مكتبة الحرم المكيّ الشريف مباشرة، سوف تجد بغيتك هناك ولا شك.

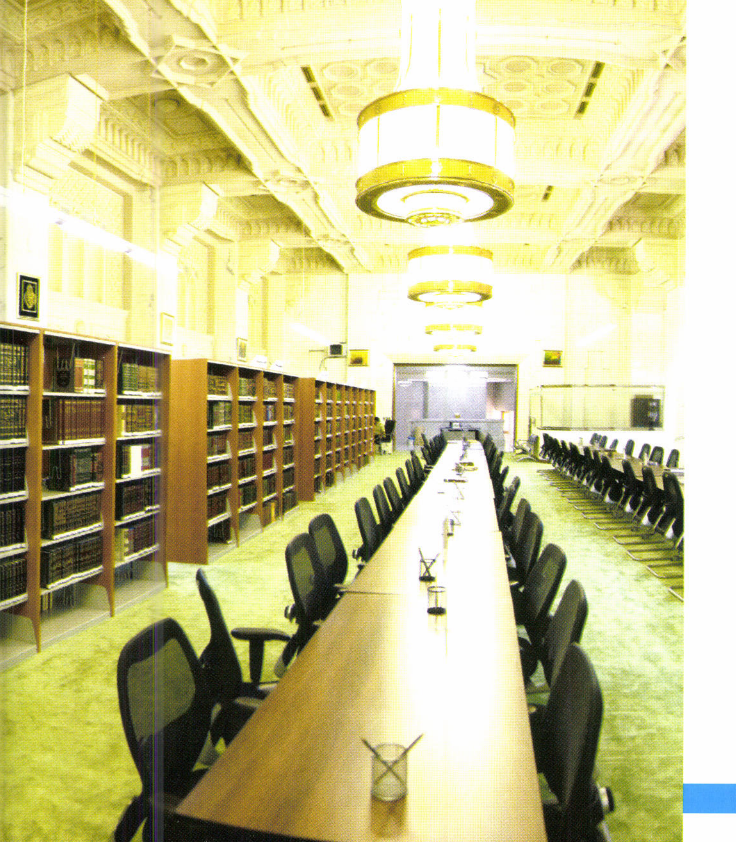
: وأين تقع المكتبة؟

: ليست بعيدة.. دعني أرافقك إليها.

: ها هي المكتبة، يمكنك التوجّه مباشرة إلى قسم التزويد، وسيدلّونك على كتب التفسير.

: جزاك الله خيراً، وبارك فيك.

: يا لها من مكتبة عامرة، هذا هو قسم التزويد، وتلك كتب التفسير هناك. سأبحث عن تفسير مختصر من بين هذه التفاسير، وغداً سأكمل البحث.



: تفسير مختصر ومناسب، يمكنني التعرف من خلاله على المعنى الإجمالي لهذه الآيات، واسمه جميل أيضاً: تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبدالرحمن السعدي.

: لأبحث أولاً عن تفسير الآية التي أخذت بمجامع قلبي، واستوقفتني من بين جميع الآيات. حسناً هذه هي السورة.. وهذه الآية: {حُنَفَاءَ لِلَّهِ غَيْرَ مُشْرِكِينَ بِهِ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ}.

والآن ماذا يقول كتاب التفسير؟

"الإيمان بمنزلة السماء.. محفوظة مرفوعة. ومن تَرَك الإيمان بمنزلة الساقط من السماء، عُرضةٌ للآفات والبليّات؛ فإمّا أن تخطفه الطير فتقطّعه أعضاءً.. وكذلك المشرك إذا ترك الاعتصام بالإيمان تخطّفته الشياطين من كل جانب، ومزّقوه، وأذهبوا عليه دينه، ودنياه.. وإما أن تأخذه عاصفةٌ شديدةٌ من الريح فتعلوا به في طبقات الجو فتقذفه بعد أن تنقطع أعضاؤه في مكان بعيد جداً" ١ .

: اللهم رحمتك.. أهكذا نتيجة الانحراف عن التوحيد والوقوع في الشرك؟ إن هذا لهو الخسران المبين!

يااااه لقد تأخرت كثيراً على زوجتي وأولادي. سأضع الكتاب في هذا المكان وأعود إليه بعد صلاة العصر بإذن الله تعالى.

---

١ - تفسير السعدي، (ج١/ص٥٣٨).





معاني التوحيد
تبدأ بالتلبية !

: " ولرفع الصوت بالتلبية منزلة عظيمة عند الله تعالى؛ فقد سُئل النبي صلى الله عليه وسلم: أي الحج أفضل ؟ فقال صلى الله عليه وسلم: (العجُّ والثجُّ)١ . والعجُّ: رفع الصوت بالتلبية، أمّا الثجُّ: فإسالة الدماء بالذبح يوم النحر. كما أخبر رسول الله صلى الله عليه وسلم عن شرف التلبية فقال: (ما من مسلم يلبّي، إلا لبّى من عن يمينه أو عن شماله من حجر أو شجر أو مدر ، حتى تنقطع الأرض من هاهنا وهاهنا) (رواه الترمذي).

: أراك حريصاً على حضور هذا الدرس؟

: على العكس هذا أول درس أحضره في حياتي لعالم في المسجد الحرام.

: أهنئك على حسن الإنصات والتركيز مع الشيخ.

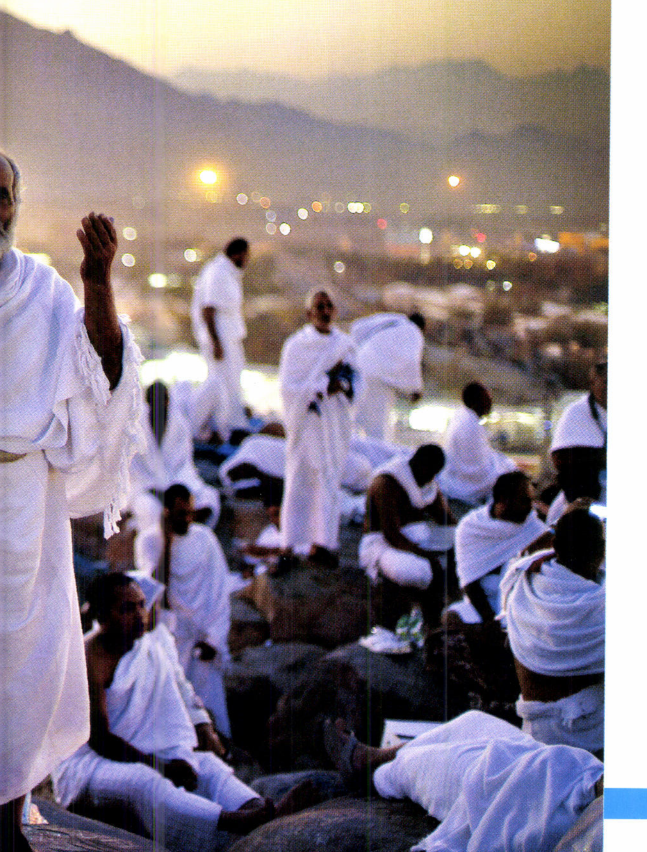
: لقد أخذني درس هذا الشيخ إلى الحقيقة التي قرأت عنها بالأمس وغيّرت مسار حياتي. لا أخفيك أنه قد تفتّحت أمامي في هذين اليومين أبوب كثيرة من العلم النافع أشرَقَت بها معاني التوحيد في وجداني واحدة بعد الأخرى.. تماماً كما تتفتح أكنان الزهور الجميلة ويظهر رونقها ويتجدد عبقها مع أشعة الشمس الأولى.

: حديثك ممتع.. هلا سمحت بالجلوس ومواصلة الحديث؟

: تفضل، يسرني ذلك.

---

١ - رواه الترمذي، وهو في السلسلة الصحيحة، (٣/٤٨٦).



: لقد اشتقت لمعرفة هذه الآيات والدرس الذي خرجت به اليوم.

: لقد كانت آيات من سورة الحج تجلّي أنوار التوحيد، وتبيّن خطورة الشرك.

: وما علاقة ذلك بدرس اليوم؟

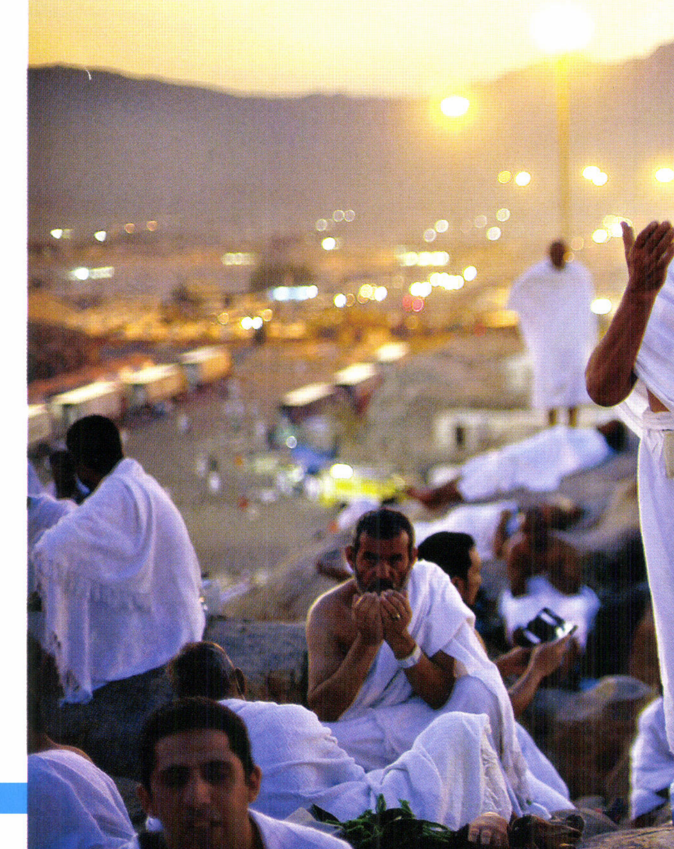
: أنا يا أخي قدمت من بلاد بعيدة يكثر فيها الجهل، ويقل فيها العلم. وكتب التفسير نادراً ما نحصل عليها. وحين وقفت على معاني هذه الآيات المباركات انتظمت في عقلي عقد جواهرها من التوحيد الخالص، وبدأت استرجع حقيقة العبودية منذ الوهلة الأولى التي عزمت فيها على الحج.. وأهللت بالنسك وبدأتُ بارتداء لباس الإحرام قائلاً: (لبيك اللهم لبيك.. لا شريك لك لبيك). لكن اليوم تجلّت لي معاني التلبية من حديث الشيخ، وأدركت حقيقتها وفضلها.

: صدقت، معاني التوحيد كلها تتجلّى حقاً بالتلبية.

: كنت ألهج بهذه التلبية طوال الرحلة.. ولكني اليوم أجد فيها معنى جديداً من معاني التوحيد بأسمى صوره ، فأنا حين أقول: (لبيك اللهم) فإني أعترف لك ياربّ بأني عبدك الذليل الذي لا غنى بي عنك.. أخضع لك خضوعاً بعد خضوع .. مستجيباً لداعيك، معترفاً لك وحدك بالنعمة والملك، ومنزهاً إياك عن الشرك.

: حقاً.. إنّ العلم يزيد في الإيمان ويصلح به العمل.

: اللهم لك الحمد أن أظهرت لي في معاني هذه التلبية دروس التوحيد الخالص، ومعاني العبودية لك وحدك دون سواك.





استسلام وخضوع !

: ها قد عُدت إلى المكتبة من جديد!

: سوف تصبح المكتبة زادي طوال مدّة بقائي في مكّة.

: لم تحضر لنا بالأمس، لقد جمعتُ لك عدداً من التفاسير والكتب التي تبحث عنها.

: أين كتاب التفسير الذي وضعته هناك؟

: تعال.. سوف أريك! هذه هي الكتب والتفاسير التي جمعتها لك، وهذا هو الكتاب الذي كنت تقرأ فيه.

: أشكرك جزيلاً على كرمك.

: لا داعي للشكر.. نحن نقوم بهذه الخدمة لجميع ضيوف الرحمن، استأذنك لمساعدة ذلك الرجل هناك.
سوف أضع الكتب هناك بقرب ذلك الرجل.

: هل تسمح لي بوضع هذه الكتب على طاولتك، والجلوس بقربك؟

: يسعدني ذلك.. يمكنني مساعدتك إن أردت.

: هل تبحث عن موضوع ما أنت الآخر؟

: كل من يحضر للمكتبة لا بد أن يأتي باحثاً عن موضوع ما.. ما موضوعك أنت؟



: لقد تعلّمت في هذين اليومين مسائل مهمة في التوحيد والعبودية كنت أجهلها من قبل.

: ما شاء الله.. تفضل، تفضل.

: شكراً.

: أخبرني ماذا تعلّمت!

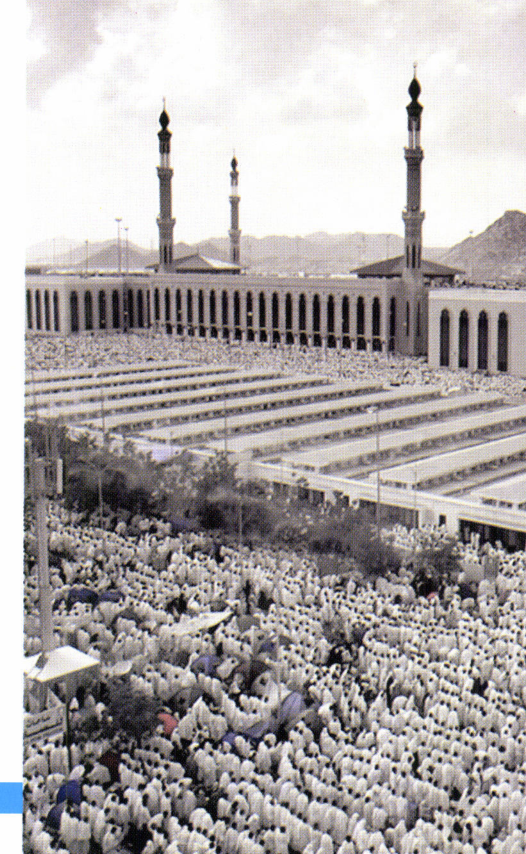
: أدركت أنّ كلّ ما فيه سعادتنا موجود في كتاب ربنا وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم، وأنّ لزوم التوحيد أعظم نعمة على العبد، وبه يخرج من عبودية العباد إلى عبودية ربّ العباد، ومن الذلّ المهين بين يدي المخلوقين إلى الرفعة والعزّة بين يدي ربّ العالمين، وهو يقوده إلى لزوم الطاعة والخضوع، والذلّ والاستسلام لله تعالى، واتباع رسوله صلى الله عليه وسلم.

: هنيئاً لك.. سوف تجد تجلية هذه المعاني بكلّ إشراقاتها في مدرسة الحج.

: كيف ذلك؟

: العبودية لله تعالى يا أخي استسلام وخضوع، وإن لم نعرف الحكمة من بعض ما نقوم به من عبادات. وستجد هذا المعنى جلياً حين تتنقّل لأداء المناسك بين مكة ومنى، وعرفة ومزدلفة.. تُقيم وترتحل، وتقف وتتحرّك.. تنطلق في ساعة محددة، وتغادر في ساعة محددة كذلك!

: كأنك تعبر عن حالي شخصياً! لقد قدمت لأداء فريضة الحج لأول مرّة وكنت بالفعل أتساءل: لماذا أرتدي هذا اللباس بالذات؟ ولماذا يجب أن أقف هنا ولا أقف هناك؟ ولأيّ شيء أقوم بهذه الأنساك على هذه الكيفية.. في هذا الوقت؟



: والآن، ماذا ستقول لنفسك بعد أن علمت حقيقة العبودية لله تعالى؟

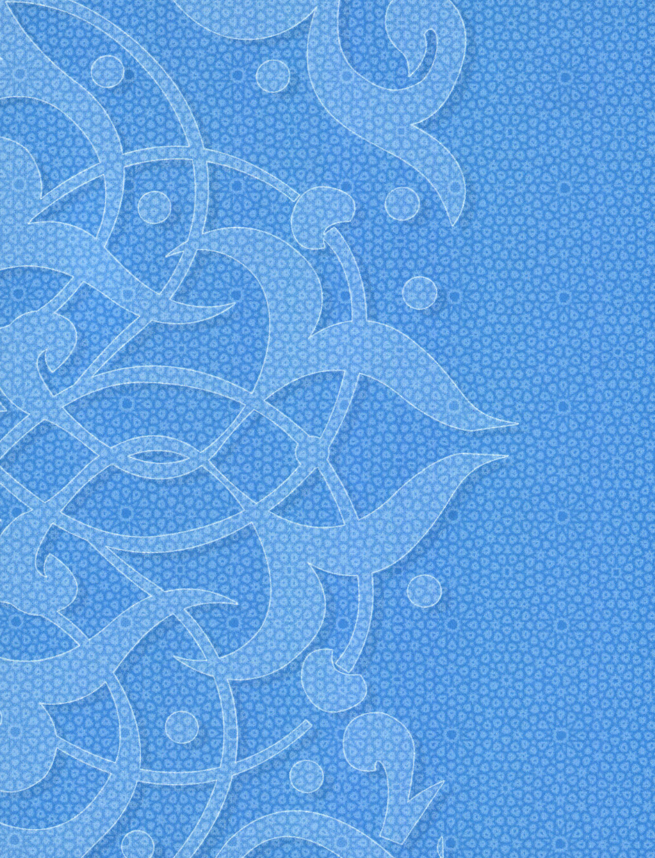
: سوف أستحضر أنّي عبد لله تعالى، مُلك أمره وتحت إرادته، ثم أقول لنفسي مذكراً: لقد جئتُ إلى هنا استجابة لنداء ربّي، ولأجله تركت أهلي ومالي وبلدي. أنا عبدٌ مطيع.. رهن إشارة سيّدي وطوع أمره.. وإذا كنتُ أفعل ذلك كله استجابة لأمره سبحانه فليس لي بعد هذا اليوم أن أساوي بينه وبين أحد من خلقه.. مهما كان قدر ذلك المخلوق ومكانته. لن أشدّ الرحال أو أسافر لضريح قبر فلان، ولن أطيع مخلوقاً أيّاً كان في معصية الخالق سبحانه.

: أهنئك على هذه النتيجة، وأسأل الله تعالى أن يثبتني وإياك على توحيده.. اسمح لي أنا مضطر للذهاب. يمكنك أن تستفيد من كافّة مرافق المكتبة، بما فيها قسم التصوير إن أردت، أستودعك الله.

: معذرة لقد انشغلت عنك بذلك الرجل.. لقد طلب مجموعة كتب لبحثه. هل تحتاج كتباً أخرى؟

: هل تصدّق أنني لم أبدأ بقراءة كتاب منها؟

: لقد رأيتك مشغولاً مع مدير المكتبة فلم أشأ أن أقطع حديثكما.



هكذا حقّقت التوحيد !

١. أدركتُ خطر الشرك وأنّه الذنب الوحيد الذي لا يغفره الله تعالى، قال سبحانه: { إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَى إِثْمًا عَظِيمًا } (النساء:٤٨)

٢. أعلنتُ التوبة الصادقة من الشرك بكلّ صوره، واستغفرت ربّي من كلّ ما بدر منّي، وأيقنت أنّ الله تعالى يغفر للتائب الصادق جميع ذنوبه.

٣. بدأت بطلب العلم النافع.. وأعظمه ما يتعلق بالتوحيد الذي هو حقّ الله تعالى على العبيد، وعزمتُ على تطبيقه في جميع شئون حياتي.

٤. أخذت أدعو الله تعالى وحده، وأسأله تفريج الكروب وجلب النفع، وتركت دعاء ما سواه من المخلوقين.

٥. أدركت مكانة الأولياء، فأحببت الصالح التقيّ منهم، وتبرّأت ممن زاغ وأخذ يخدع النّاس ويدّعي علم الغيب ويترك العبادة وبخاصة الصلاة.

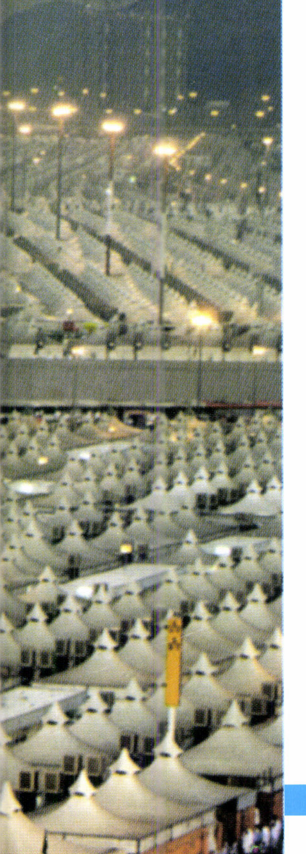
٦. قطّعت التمائم التي كنت أعلّقها في جسدي وفي بيتي وسيارتي، وأقلعت عن التشاؤم بالحيوانات لأنّ الله تعالى وحده هو الذي بيده جلب النّفع ودفع الضرّ وهو القادر وحده على كلّ شيء.

٧. ذقت حلاوة الإيمان بعدما تركت الاستغاثة بالبشر.. أحياء وأمواتاً، وأخذت أستغيث بالله تعالى وحده.

٨. تبرأت إلى الله تعالى ممن كنت آتيهم من السحرة والكهّان والعرّافين الذين كنت أظنّ أنهم قادرون على جلب النفع والضرّ وأنهم يعلمون الغيب الذي لا يعلمه إلا الله سبحانه.

٩. تركت الركوع والسجود لغير الله تعالى وأقلعت عن استقبال القبور والأضرحة بالصلاة، وعلمت كيف شرّفني الله تعالى حين جعلني عبداً له وحده، أدعوه وحده، وأسجد وأركع له وحده، واستقبل بيته الحرام للصلاة فحسب، لا قبر ولي، أو ضريح نبي وصالح.

١٠. أدركت معنى العبادة، وأنها تشمل كلّ ما يحبه الله تعالى من الأقوال والأفعال الظاهرة والباطنة، فالصلاة عبادة، والذبح عبادة، والدعاء عبادة. ولأن العبادة خاصّة بالله تعالى فقد جعل سبحانه صرف شيء منها لغيره شركاً لا يرضاه ولا يغفره.



١١. عقدت قلبي على التوكل على الله تعالى والثقة به، فهو وحده الذي يجلب النفع ويدفع الضرّ، وهو الذي يرزق ويسمع دعاء المكروب والمحتاج.

١٢. تركت دعاء الأموات من الصالحين والأولياء، وبدأت بالاستغفار لهم وطلب الرحمة لهم، وعلمت أنّا لسنا من يحتاج إليهم بعد موتهم، بل هم الأحوج إلى دعائنا، لأنهم مرهونون بأعمالهم محاسبون بين يدي ربّهم، ولا يقدرون على نفع أنفسهم فكيف بغيرهم.

١٣. تأدبت بآداب زيارة القبور، ولم أعد أصلي وأسجد باتجاه القبر أو أطوف به، أو أرفع يدي طالباً المدد من الأموات، فقد هداني الله تعالى لاستقبال القبلة فقط للصلاة والدعاء، وطفت ببيته الحرام، وأسأل الله الثبات حتى الممات.

١٤. أخذت أعلّم أهلي وأصدقائي وجيراني معنى كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) وأبيّن لهم شروطها ونواقضها، وأعلّمهم كيف نحققها في حياتنا حتى يرضى الله عنا ويحشرنا في زمرة عباده المؤمنين الموحّدين.




الحج علمني
معنى التوحيد


إعداد
مكتبة الحرم المكي الشريف
إنتاج
إدارة المطبوعات والنشر